

العظمة الخالدة

ليس منا أيها السادة من يحمل طباع القوم الذين ولد بينهم الرسول عليه الصلاة والسلام لقد كانوا على جانب كبير من الحشونة والفظاظة والتعصب والضلال والاستبداد والظلم . واجه النبي أولئك القوم بنفس حائرة متألمة نفس لم تكن تلك من أمرها إلا قوة الإيمان وصلابة الرأي وصدق الجهاد ، ألفت قسوة اليم والرعى في طفولتها ، وذاق مرارة الاضطهاد والحزن في شبابها ، ثم هنتت بنشوة الفتح والنصر في شيخوختها .

ما كاد النبي صلى الله عليه وسلم ينهض بأعباء رسالته حتى اصطدم بعالم يسوده الفوضى واستبداد الحاكمين فعود نفسه على إثارة الخير والحب للغير ، وكلها بالحقق والأمانة ، وروضها على الصبر واحتمال المتاعب ، ولاحتمال المتاعب أيها السادة حدود مهما صبر الانسان وصابر ، وحدوده لم تكن في نفس الرسول العظيم لنفسه ولكنها كانت في نفسه لغيره ، فلم نسمع عنه أنه همس بالشكوى أو جاهر بها كانت عناصر الشرك لا تألو جهداً ولا تدخر وسعاً في أن تذيب محمدًا وصحبه من الأذى الوانا ومن العذاب ضروبا ، ولما عجزت عن ثني محمد وحمله على ترك دعوته لجأت إلى عمه أنى طالب تشكوه وتطلب منه أن ينصحه بالكف عن تسفيه أحلامها ، وتحقير أصنامها ، والنيل من كبرياتها ولكن أبا طالب يحيب ظنها ويقول للرسول بعد ما لمس فيه قوة العقيدة وعدة الإيمان ومواطن الشجاعه يقول له : « اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلك لشيء تكرهه أبداً »

ومضى الرسول عليه الصلاة والسلام يجاهد بالصبر ويصاول بالحجة ، ومضت عناصر الشرك تدفع الحجة بالأذى وتقابل الصبر بالنزق والجنون ، ومرت الأيام ولجج الرسول بموت عمه وزوجه ، وشعر بأنه يقف وجها لوجه مع المشركين ، فلم يجد ، مناصا من استعمال القوة مع أناس لا يفهمون إلا سياسة الحزم والقوة ، ولكن قبل أن يلجأ الرسول إلى الحزم والقوة نرى حادثا عظيما يستحق أن نقف عنده ونأمله ذلك أن أبا جهل رأى الوقت مناسباً ليعذب الرسول ويقسو عليه في صحبه ،

ودفعته نزعة الشر إلى أن يرتكب أبشع الجرائم في حياته وظل يجلد سمية آناء الليل وأطراف النهار ، وتعمل نهايتها بعد تعذيب مضمن طويل بطعنه من يده فقضى عليها ، ثم دفعته نزعة الشر للمرة الثانية وتفنن مع المناققين في تعذيب زوجها ياسر ولم يتركه إلا جثة هامدة ، ولم يسلم ابنتها عمار من قسوة العذاب وهو الذي آمن بدعوة الرسول وجاهر بها بين أمه وأبيه حتى أسلمها .

حكم المشركون على أم عمار وأبيه ياسر الموت ، واستشهد عمار في معركة صغيرة وكتب لآل ياسر الخلود والجنة .

هذه صفحة ناصعة من صفحات التضحية في سبيل المبدأ والعقيدة ، وتضحية المسلمين في ميادين الفتح والكفاح لم تكن أقل منها في بداية عهدهم في الاسلام ، فخلد الدهر أبطالا شهد العالم لهم بالكفاءة الحربية والاستبسال والمهارة الفنية في قيادة الجيوش ، وكتب التاريخ تحدينا حديثا مستفيضا رائعا عن عبقرية خالد بن الوليد قاهر القياصرة ، وسعد مذل الأكامرة ، وقيية الباهلي الذي اكتسح جميع القوى التي اعترضت سبيله في آسيا الوسطى حتى وغل في بلاد الصين ، ثم البطل الفاتح عقبة بن نافع الذي خوض جواده بعد معركة مظفرة في مياه المحيط الاطلسي حتى إذا جاوز الماء صدر جواده شهر سيفه وهتف من أعماق قلبه : « يارب لولا هذا البحر لمضيت في سبيل إعلاء كلمتك مجاهدا » .

بعد تلك القوة والعظمة والبطولة التي حمل الرسول ومن بعده عطاء الإسلام مشاعلها الوهاجة في الشرق والغرب نرى كثيرا من رجال الغرب يعجبون علينا تفكيرنا التجريدي ويردون هذا التفكير الجامد إلى شريعتنا ، والأسف الشديد أن هذا الزعم وجد في نفوس كثير من المسؤولين في الشرق هوى وقبولا فانطلقوا بتطفلون على من عابهم وهضم حقوقهم ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسك النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ،

ولو أنهم تفهموا شريعتنا لوجدوها شريعة واقعية لا تجر يديه كما يزعمون وآية ذلك أيها السادة أن الامبراطورية الإسلامية التي كل لها عظمتها في عهد الفاروق عمر قامت على أسس ثلاث هي نفس الأسس التي قامت ولا تزال